الفصل العاشر

فتح قازان

« كل نواميس نوفغورود تقرع لأن قازان تم الاستيلاء عليها » ، هذا ما يمكننا قراءته في حولية نوفغورود القديمة . وقد قرعت نواقيس موسكو كلها أيضا . وكلما تلقت واحدة من مدن روسيا القديمة النبأ اخذت نواقيسها بالرنين . كان فرحا قوميا كبيراً فقد ضمت قازان الى المسيحية . كان انتصاراً لأمة الكنيسة امة الله . والإيقونات الأرثوذكسية لن تلبث أن تخترق الفولغا ، وروسيا الظافرة ببريق حظها اصبحت على ابواب آسيا وهلال الإسلام كان يخبو نوره امام ضياء فجر السلاف.

لقد انهى إيفان سيطرة التتر على قازان . فالقربينات والمدافع والأعمال التي قام بها المهندسون الالمان اثبتت تفوقها على القوس والسيف . « فالتتر لم يكونوا يستخدمون في قتالهم أي سلاح ناري ولم يكونوا اكثر من اناس عراة يمتطون الخيول ماهرين في استعمال القوس والسيف . وثمة رواية تستحق التصديق بانهم يولدون عمياً ولا يفتحون جفونهم إلا في اليوم الثالث وهذا لا يحدث إلا عندهم وانهم شعب بربري فظ يعيشون على نتاج الماشية والتغذي بها ... وعندما يغزون اراضي أعدائهم لا يحمل احدهم من المؤونة اكثر من كيس من الطحين ياخذ منه طول مدة المسيرة حفنة يبللها بدم حار ماخوذ بواسطة إبرة مخصصة لهذه الغاية من فخذ حصانه » (١) . وهكذا كانوا يعيشون

---

(١) رسالة من وليام هاربون الى سير فرانسيس والسينغهام .